



Scan for download

نقاط تمهيدية في المنهج السيميائي لدراسة اللغة العربية

Semiotic Approach to Arabic Language Study

Atef Ismail Ahmed Ibrahim Muhesin

Associate Professor of Linguistics

Jumeira University - Dubai – UAE

ABSTRACT

There are many points of view according to different vision but the natural phenomenon for research method is same. The scientific theories and approaches which analyzes the language from the linguistic structural approach, the method of composition, the dissociative approach, the semiotic method of today's scholar especially in the field of modern and contemporary Arabic criticism is due to the spread of translation and increased area of friction with the languages used in the west.

Some of the scholars think that they have introduced new theory and modern devices to the language, but the ancient scholars used the signs of science. According to the west scholars, science is not the exclusive domains of people without others, it is a communication between human beings. From the point of view of Arab scholars, I have summarized the discussion under these facts is: Definition of semiotic, the requirements of the curriculum, the difference between linguistic of sentence and speech, and the statements of renowned scholars in this field. More the need of the semiotic syllabus in our Arabic language also been highlighted.

The contribution of Ancient Arab linguists' strategies is helpful in the field of study Arabic Language. We hope that we should be able to look at the semiotic syllabus in an Arab spirit to show its features.

Key words: *Semiotic, linguistic structure.*

المقدمة:

علم اللغة من العلوم التي تعد جزءاً من أجزاء المنظومة العلمية، وتتعدد نظرياته ومناهجه التي تحلل اللغة، فمن هذه المناهج: المنهج البنوي اللساني، والمنهج البنوي التكويني، والمنهج التفكيكي، ومنهج القراءة والتقبل الجمالي، والمنهج السيميولوجي السيميائي، ولذا انتشرت العديد من المصطلحات الوافدة على علماء لغتنا في يومنا هذا خاصة في حقل النقد العربي الحديث والمعاصر بسبب انتشار الترجمة وزيادة مساحة الاحتكاك مع الغرب. نقدم تحديداً المنهج السيميائية، ومتطلباته بأنساقها المتنوعة.

تعريف السيميائية:

السيميائية علم يستمد أصوله ومبادئه من مجموعة كبيرة من الحقول المعرفية كاللسانيات والفلسفة والمنطق والتحليل النفسي الأنثروبولوجي، ويدل على كل مظاهر السلوك الإنساني بدءاً من الانفعالات البسيطة ومروراً بالطقوس الاجتماعية. وتعنى بدراسة كل ما يخص السلوك الإنساني بدءاً من إنتاجه للغة واللباس وجميع العلاقات الاجتماعية والطقوس الأسطورية والدينية.

والعجيب أننا إذا أردنا تحديد ماهية هذا العلم سنجد أنه أمراً بالغ الصعوبة، حتى محاولة تحديد بعض محطاته الكبرى أمر بالغ الصعوبة، ويثير حوله الكثير من الجدل، بل قد يؤدي إلى الكثير من سوء الفهم. تساؤلات تخص الطريقة التي ينتج بها الإنسان سلوكياته أي معانيه، وهي أيضاً الطريقة التي يستهلك بها هذه المعاني، وأخرى للخطاب، وثالثة للسرد ورابعة للشعر الخ.

والأكيد أن هذه التصنيفات المتنوعة لا تعود إلى طبيعة المعاني التي تنتجها الأشكال التعبيرية المختلفة، فالمعاني لا تتحدد بجواهرها، بل تعود إلى الثوابت التي يفرضها نمط بناء كل شكل تعبيرى على حده. تعد السيميائية في جميع الحالات بحث في المعنى لا من حيث أصوله وجوهره، بل من حيث انبثاقه عن عمليات التنصيص المتعددة، باعتبارها الوعاء الذي تصب فيه السلوكيات الإنسانية.

فقد أنبتت نتائجها النظرية والتطبيقية علوماً كثيرة: كالأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، والتحليل النفسي، والتاريخ، والخطاب، وكل ما له صلة بالأدب والفنون، وتناول الإنتاج الإنساني من زوايا نظر جديدة، وإعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى التي يجب تتطلب إجراءً دلاليّاً لا تجميعاً لعلامات متنافرة.

ومن هنا فهل يطبق هذا المعنى اللغة المنطوقة والمكتوبة، على وفق ما قرره بعض المدارس اللغوية في أوروبا كمدرسة (براج) اللسانية التي ترى أن "اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة لا تنطابقان، ولكل منهما خصائصه المميزة، ولا بد إذن من فحص العلاقة بين لغة الكتابة ولغة النطق"⁽¹⁾ كي نقرر أيهما يدور حوله هذا المنحى الجديد.

وكذلك هل يقصد بها اللغة الحقيقية في معناها ومبناها أم اللغة المجازية، ومن المهم بمكان أن نشير إلى مقولة (تودوروف) في هذا السياق لأنه يعرف العلاقة بينهما، ويعتبر "أن اللغة المجازية تتعارض مع اللغة الشفافة لكي تفرض حضور الكلمات وأن اللغة الأدبية تتعارض مع اللغة المشتركة لكي تفرض حضور الأشياء. فوجود خصم مشترك يفسر صلة القرابة بينهما.. ويفسر في الوقت نفسه الإمكانية المتاحة لهما كي تستغني

أحدهما عن الأخرى.

ويستخدم الأدب الصورة البلاغية كسلاح في صراعه مع المعنى المحصن، ومع الدلالة المجردة للذين استولوا على الكلمات في الحديث اليومي ويتحقق هذا التعاون بشكل مختلف في النثر عنه في الشعر...⁽²⁾ إن كلمة السيميائية أو "السيمولوجيا"، أو "السيموطيقا"، مشتقة من الأصل اليوناني، كما يشير إلى ذلك (سيوسير) يقول: "يمكننا أن نتصور علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، علما سيشكل فرعاً من علم النفس الاجتماعي. ومن ثم، فرعاً من علم النفس العام. وسوف نطلق على هذا العلم اسم "سيمولوجيا" (من اللفظة الإغريقية "، التي تعني "علامة")"⁽³⁾.

السيميائيات صريحة في هذا المجال، أما ما يخص اللسانية فيرى (بيرس) أنها على ثلاثة أبعاد رئيسية، هي: البعد النحوي التركيبي، والبعد الدلالي، وهي الصفة التي تشكل العلامة الفردية أو العرفية المتمثلة في القواعد التركيبية للنحو والصرف، مع مراعاة وجود القرينة، والرمز. فهي تسلم بوحدة الظاهرة الدلالية؛ كيفما كانت لغتها وكيفما كان شكل تجليها.

يهتم علم السيمولوجيا بدراسة الدلائل والعلامات في قلب الحياة الاجتماعية، ويجب أن نتصور أنه علم يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي، وهذا العلم يشكل جزءاً من علم النفس العام. بما يقرب للأذهان مفهوم ووظيفة علم الدلالة، ذلك العلم الذي يهتم موضوعه بالجهة التي تقتنص اهتماماً فريداً بأنواع الدلالات والمعاني.

ومن هذا المنطلق أصبحت السيمولوجيا تمثل المعرفة والتفحص في دراسة العلامات، وكل أنساقها المحتملة في التعبير الاجتماعي، سواء كانت هذه العلامات لسانية أم غير لسانية.

ويتفق مع ما يذهب إليه ويوازيه في الفهم (لويس بريبطو) في أن السيمولوجيا علم يعنى بالبحث في أنظمة العلامات بغض النظر عن نوعها أو مصدرها، علامات لغوية كانت، أو غير لغوية. إن العلامة اللغوية هي محور مشروع (سوسير) السيمولوجي. ولذا ما يميزه عن اللسانيات البنوية التي تهتم بالجملة. من خلال تمنع التعريفات التي قدمت للسيميائيات يتضح أنها جميعها تتضمن مصطلح العلامة.

ولو أسقطنا ما عرضنا وفهمنا من مدلول لكل ما قيل وتم تطبيقه على ساحة الفكر العربي نجد كأني علامة لغوية لها ذاكرة ضاربة جذورها في التاريخ، وهنا يتجلى دور اللسانيات لبيان موقعها في هذا الحقل ويقول محمد الحناش فإن "دور اللسانيات الحديثة، هو إعادة هيكلة قواعد النحو العربي (بمفهومه الواسع طبعاً) من منظور جديد، فتقدمها بطرق أخرى تكون أكثر ملاءمة مع التطور الذي حصل في المجتمع العربي، وهذا المنهج لا يعني الانتقاص من قيمة التراث اللغوي (اللساني) بل تأكيد لقيمته..."⁽⁴⁾

متطلبات المنهج:

يتطلب المنهج تحديد ماهية علم العلامات (الأيقون- الرمز- الإشارة)، ومن الصعب إيجاد تعريف دقيق للعلامة لاختلاف مدلولها من باحث لآخر، فعند (سوسير) تتكون العلامة من الدال والمدلول، ويتضح لنا أن العلامات وأنساقها الموضوع الرئيس للسيميائيات؛ لأن "اللغة طريقة إنسانية خالصة، وغير غريزية لتوصيل

الأفكار والانفعالات والرغبات، بواسطة نسق من الرموز المولدة توليداً إرادياً⁽⁵⁾ وأوضح أن قيمة العلامة إنما تكمن في علاقتها بما يجاورها من العلامات الأخرى.

وهذا المفهوم تأكد ووضح انطلاقاً من مشروع (دي سوسير).

وعليه بات اهتمام الموضوع منصباً على دراسة حياة العلامات في كنف المجتمع، باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية، تخرج من المجتمع، وتعود إليه، وتصبح اللغة كالحى لا يتحرك بقدم واحدة بل لابد من قدمين اثنتين، كما أن الإبداع هو نتيجة تعارض وانقطاع بين الواقع القائم وطموح إلى واقع غير متحقق.⁽⁶⁾ كي تستهدف تحقيق التواصل، بالنظر إلى أهميته في الحياة الإنسانية.

أصبح من مقتضيات ذلك أن دراسة عدد من الحقول اللغوية بمثابة الشفرة التي تتخذ العمل الاجتماعي للغة كلها.

هذا يقودنا إلى تقبل توسع (بيرس) في مفهوم العلامة، فيشمل - إلى جانب العلامات اللسانية - العلامات غير اللسانية، مما يوحي بصعوبة مدلول العلامة عنده، وأنتج لنا تفرعات وتقسيمات، ما بين:

أ - العلامات اللسانية (أو اللفظية): ويقصد بها الكلام المنطوق وعلامات الكتابة أو الحروف بأي لغة كانت.

ب - العلامات غير اللسانية (أو غير اللفظية): وهي التي تقوم على أنواع سننية أخرى غير الأصوات والحروف. ويمكن أن نقسمها إلى علامات عضوية مرتبطة بجسم الإنسان (مثل: حركات الجسم وأوضاع الجسم والعلامات الشمية والسمعية والذوقية...)، وعلامات أذاتية تحيل على أشياء خارجة عن العضوية الإنسانية (مثل: الملابس والموسيقى وإشارات المرور...). وعادة ما تُعطى الأولوية للعلامات اللسانية التي تقوم على اللغة أو الكلام. كما يقول (سوسير) بأن اللغة مكون كبير ونسق متكامل من العلامات التي تعبر عن الأفكار. ويتضمن الموقف البنيوي -بالإضافة إلى ذلك- إلحاحاً على الوظيفة الاجتماعية التواصلية (لغة، وتميزاً واضحاً بين الظواهر التاريخية، والخصائص المميزة للنظام اللغوي في لحظة زمنية بعينها)⁽⁷⁾

لسانيات الجملة ولسانيات الكلام:

إذا تقرر أن الخطاب مجموعة جمل تتوافر على شرط النظام، حتى يتسنى درسه وملاحظته فقد صدمنا بالمنطق الصارم لللسانيات التي تحدد موضوعها في الجملة ولا تتجاوزه؛ ولكن الحقيقة خلاف ذلك بقليل حيث تعتبر اللغة بما فيها من خطاب موجه تتحكم فيه عوامل بعيدة عن جمود القاعدة تختلف باختلاف المواقف، عبر عنها (روسو): بقدر ما تنمو الحاجات، وتتعدد الأعمال، وتمتد الأنوار، تغير اللغة من طابعها، فتصبح أشد معقولة، وأقل عاطفية، وتعوض المشاعر بالأفكار، وتكف عن مخاطبة القلب لمخاطبة العقل، ومن ثم بالذات تنطفئ النبوة، وتتعدد المقاطع، فتصير اللغة أشد ضبطاً، وأشد وضوحاً، ولكنها تصير نصاً أوفر، وأصم، وأبرد.⁽⁸⁾

ومن خلال هذا المنحنى الطبيعي في الحديث عن بنية لغة الخطاب الموجه فإن (رولان بارت) يعتقد أن الخطاب يمتلك وحداته وقواعده ونحوه الخاص أو فيما بعد الجملة، وأن الخطاب مكون فقط من جمل، إذا عنده الخطاب أولاً ثم اللغة مهما كانت ثنائية، فأدخل الاهتمام بالبلاغة بما فيها من جمال تعبيرى أولى

تؤكد التجربة أن -بالإمكان- إنتاج الدلالة وتحقيق فعل التواصل بواسطة الأنساق السيميولوجية اللغوية وغير اللغوية.

يقدم بول ريكور مفهوماً للغة أكثر إجرائية من تحديد سابير يقول فيه: "إن اللغة بذاتها هي العملية التي تصبح فيها التجربة الخاصة عامة، فاللغة تخارج يتعالى به انطباع ما ويصير تعبيراً (خارجياً) أو بعبارة أخرى هي تحويل النفسي إلى تعقلي صوري، والتخارج وقابلية النقل هما شئ واحد بعينه، لأنهما ليسا سوى السمو بجزء من حياتنا إلى مستوى لوغوس الخطاب، وهناك يضئ نور الخطاب الشامل عزلة حياتنا المؤقتة"⁽¹⁰⁾.

وانطلاقاً من هذه الفرضية التي تتضمن وجهة النظر التي ترى أن التحليل البنيوي يعد "طرفاً في الجملة دون أن يكون مجرد مجموعة من الجمل. وهنا تكون اللغة السردية منية أصلاً من جمل كبيرة، قائمة على الجمل التقريرية، ذات الكيان الواسع والمفهوم القاعدي والأساسي في جميع علوم اللغة. والحقيقة ما قدمه (سوسير) لمفهوم العلامة بأنها مجردة، وتتكون من الدال والمدلول، أي تتجرد من الواقع والطابع الحسي والمرجعي، وارتبطت كذلك بالشعرية والنحو والبلاغة وباقي المعارف الأخرى، بالإضافة لبعض التغيرات الصوتية كآليات يستخدمها المتكلم لضمان المعنى كالفونيمات الثانوية المتمثلة في "وجود النبر والتنغيم بالذات في الكلام المسموع دون المكتوب، يجعل الأول أقدر في الكشف عن ظلال المعنى؛ ودقائقه من الثاني"⁽¹¹⁾.

السيميولوجيا أعم من اللسانيات أي إن اللسانيات جزء من السيميولوجيا كما عند (سوسير) فإن رولان بارت يعتبر السيميولوجيا أخص من اللسانيات، أي إن السيميولوجيا فرع من اللسانيات وأن كثيراً من العلامات البصرية والأنساق غير اللفظية تستعين بالأنظمة اللغوية. المتمعن في المصطلحين على المستوى المعجمي، حيث استعمل السيميولوجي في الدلالة على أي شيء، ففي الأصل للدلالة على "علم في الطب وموضوعه دراسة العلامات الدالة على المرض". ولاسيما في التراث الإغريقي حيث عدت السيميوطيقا جزءاً لا يتجزأ من علم الطب.

وإذ حاولنا استقراء تراثنا العربي، وجدناه حافلاً بالدراسات المنصبة على دراسة الأنساق الدالة. والتي نادى بها (جورج مونان) أحد أنصار اتجاه سيمياء التواصل بفرنسا إلى جانب كل من (بريطو) و(بويسنس) و(مارتينيه)... إلخ، فيعني بالسيميولوجيا حيث اتسع المفهوم أكثر فأكثر حتى يشمل دراسة جميع السلوكيات، وفضلوا تحديد مسافة لدراسة التغيرات اللغوية. وكما هو واضح فإن طبيعة اللسانيات التاريخية وموضوعاتها لم تسمح بمعالجة موضوع الخطاب معالجة ذات صلة بجوهر اللغة. فالتحليل التعاقبي الذي طبع المنهج التاريخي في الدراسات اللغوية فرض على (سوسير). أن يؤسس معالم اللسانيات البنيوية، ويرسم خطاباً إبستمولوجياً يتعامل مع نظام اللغة بمنطق علمي جديد لا يخفي أصوله الفلسفية والعلمية. إن التحليل البنيوي للغة ترك مجالاً واسعاً وفضاء خصباً لدراسة الخطاب من مستويات عديدة:-

المستوى الصوتي. - المستوى التركيبي. - المستوى الصرفي. - المستوى الدلالي. - المستوى المعجمي. - حتى المستوى البلاغي.

لقد ذهب (سوسير) إلى أن اللسانيات جزء من علم عام هو "السيمولوجيا". يقول: "وليس علم اللغة إلا جزءاً من هذا العلم العام.

وإن القوانين التي ستكشف عنها السيمولوجيا ستكون قابلة للتطبيق على علم اللغة. ويقول في موضع آخر: أما بالنسبة إلينا، وخلافاً لمن سبقنا، فنعتبر أن المسألة اللسانية هي قبل كل شيء مسألة سيمولوجية. انطلاقاً من أطروحات ابستمولوجية لعلم اللغة. والتعيين بينها وبين الكلام الذي يتسم بالتصرف الفردي للمؤسسة الاجتماعية للغة، فهو نشاط يتسم بالتحول والتغير ويتيح فرصاً لتحليله من توجهات علمية عديدة: نفسية، اجتماعية، أنثروبولوجية.. الخ. وقد وظف أفلاطون لفظ Sémiotike للدلالة على فن الإقناع، كما اهتم أرسطو هو الآخر بنظرية المعنى وظل عملهما في هذا المجال مرتبطاً أشد ما يكون بالمنطق الصوري، ثم توالى اهتمامات الرواقين الذين أسسوا نظرية سيمولوجية تقوم على التمييز بين الدال والمدلول والشيء، لقد فرق فرديناند دي (سوسير) بين اللغة والكلام: "إن اللغة والكلام عندنا ليسا بشيء واحد، فإنما هي منه بمثابة قسم معين وإن كان أساسياً، والحق يقال، فهي في الآن نفسه نتاج اجتماعي للملكة الكلام ومجموعة من المواضع يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة.

إذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزعا في الآن نفسه، إلى ما هو فردي، وإلى ما هو اجتماعي... أما اللغة فهي على عكس ذلك، كل بذاته ومبدأ من مبادئ، التبويب"⁽¹²⁾.

ولكن مهما يكن من فروق بين اللغة والكلام فإنهما متلازمان ومتواصلان وعلى الرغم مما يبدو للوهلة الأولى من أن دي (سوسير) قد أهمل لسانيات الكلام وأبعدها من صفتها العلمية لافتقارها لعنصر الانسجام والوحدة، ويرى بعض الباحثين بأن (سوسير) لم ينف الكلام، ولم يبعده من الدراسة اللسانية، كما قد توهم البعض، وإلا لما كان مقبولا حديثه عن لسانيات الكلام، والمراد بذلك أن الكلام - أي الذات المتكلمة - لا يغيب في الدراسة اللسانية إلا مؤقتاً وفقاً لمتطلبات منهجية مادام يستحضر ويخصص له حيزاً في الدراسة اللسانية. صحيح أنه ليس من صميم الدراسة اللسانية الصارمة لأن دراسته لا تقوم إلا بتدخل عدة علوم، أي عدة مناهج تختلف من حيث الطبيعة والجوهر مع المنهج اللساني المقترح.

وقد دافع نعوم (تشومسكي) عن هذا الاتجاه حين حدد واحدة "من الإشكاليات الاستراتيجية الرئيسة عندما يتساءل عن المدى الذي يحرز هذا التضييق المتعمد كمصدر للتبصر العلمي العميق، وهل ينتفي بانتفائه ثم عن المدى الذي يقلل به هذا التضييق إمكانيات الاكتشافات الهامة"⁽¹³⁾. فإن كان (فان ديك) يجنح بالخطاب عن الشكلية، وأوجب اقترانه بالدلالة، فإن (إميل بنفيسست) يرى أن "الجملة لا توجد إلا في اللحظة التي تقال فيها."⁽¹⁴⁾، ومن هنا فاللغة بالمفهوم السيمولوجي أضحت مجموعة من العلامات التي ربما تكون آنية، وأن الظاهرة اللغوية هي ظاهرة سيميائية ستكون مادة خصبة للمنهج السيميائي في تحليله للخطاب مع تجاوز الثنائية (اللغة الكلام) مع التركيز على اهتمام السيميائي الاجتماعي، وحينئذ سيصير الكلام بوصفه إنجازاً

مفرداً غير ذي أهمية في مجال البحوث السيميائية، وقبل هذا فإن التحليل البنيوي استفاد من المنهجية اللسانية، فصار تحليل بنية النصوص في ذاتها ولذاتها، وذلك بفضل المقولة التزامنية في دراسة اللغة. فلا يمكن فصل اللغة عن الإنسان؛ لأنها الأداة التي بها يصوغ مشاعره وانفعالاته. ومع أن اهتمامات الألسنية في مجملها تدور حول مسألة البنية الكلية للكلمة والجمل.

تحليل الخطاب:

يعد مصطلح الخطاب من أكثر المصطلحات تعقداً، وأشدّها لبساً، وأكثرها انتشاراً في المجالات المعرفية المختلفة⁽¹⁵⁾. خاصة في نطاق التحليل؛ لاهتمامه ببناء نظام يناقش إنتاج الأقوال وما ترمي إليه النصوص، وكل ما يصنف تحت ما يسمى بالقدرة الخطابية.

وعند تحليل الخطاب من الناحية العملية يدور في أذهاننا كل ما يصنف حول تداولية الخطاب " فإن بروز الجانبين العملي والقصدي في الخطاب، جعل استعمال الخطاب عند بعضهم يقترن بمصطلحات تؤدي صفتي العملية، والقصدية، من ذلك مصطلحات العمليات الخطابية، وتداولية الخطاب، وخطة الخطاب.⁽¹⁶⁾ فالجملية في الخطاب هي إطار اللغة بوصفها أداة للتواصل، وهي موضوعه، وتصير وحدة فالجملية هي الوحدة الخطابية، ولكن ليس بعموم الحكم، فلربما تؤدي كلمة ما تؤديه جملة، بل ويمكن أن نزيد عليه بأن ما تؤديه إشارة ما تكفي ما يؤديه حديث ساعة بين اثنين. ولكن اعتبار الجملية لأنها تنقل اللغة من سكونها إلى حركية الاستعمال الفردي (الكلام والخطاب)، إن اعتبار الشكل للتلفظ عنصر من عناصر اللغة التي تشكل ماهية الخطاب. فتحديد العلاقة بين المرسل والمستقبل، تسمح للفاعل المتلفظ أن يجد منزلة في الخطاب.

الطريق إلى نحو النص:

جرت العادة أن يتعامل المحلل للخطاب الكلامي بأن الجملية هي محور حركته، وإن النظرية التوزيعية في اللسانيات الحديثة أسهمت بفضل جهود (بلومفيلد) و(هاريس) في دراسة قواعد الجمل، وتحليلها بوصفها وحدات ممكنة في لغة معينة بمعنى يجب أن تتوافر فيها القابلية للتحقيق بهذا التصور لقواعد الجمل، ويمكن النظر إلى تحليل الخطاب على أنه الطريق إلى معرفة المقاييس التي يلجأ إليها لتحديد المتتاليات من الجمل الملفوظة المتشكلة للتوافقات المتضافرة لتحقيق التكافؤ بين الجمل المنتمية لهذا النوع داخل النص؛ لأن "مقاربة النص مقارنة بنيوية جارية على مثال الدرس اللساني للجملية، كانت أدخل في منطق الخطاب الأدبي، وأخرج عن الأصل اللغوي المحض من جملة أو موضوع البحث، والبحث والنظر، ليس نحو الجملية، وإنما نحو النص الذي يختص بمكونات تختلف عن مكونات الجملية⁽¹⁸⁾. إلا أن (تودوروف) يرى "أن العلاقات بين الشخصيات، في كل من أنواع السرد يمكنها أن تقتصر على عدد محدود، ويكون لشبكة العلاقات هذه دور رئيسي في بنية العمل"⁽¹⁹⁾ فالتعامل مع النص كله باعتباره الوحدة الفصل وليس الجملية.

اللبس الفكري في تحديد بعض المفاهيم

يعاني البحث العلمي عموماً من إشكالية تحديد المفهوم، فمفهوم الجملية من ناحية دلالتها المباشرة وغير المباشرة، وتتمتعها بالصحة الدلالية والمنطق اللغوي السليم، عندما تخلو من التنافر الصوتي، وتتميز

بناء كلماتها بالاختيار الموفق لأبنيتها، وتخضع بنيتها التركيبية لقواعد اللغة الواضحة، هذا جانب تركيبى، ولكن ثمة جانب آخر وهو الجانب المعرفى الكائن في تحديد مقصودها بعيداً عن ماهيتها التي "تتألف من عناصر تعود إلى ثبت مغلق، ومن أصوات محدودة العدد ترتبط بالمعنى، ولكن هناك بنى وجمل تختلف في معناها وتحقق بأشكال متشابهة، وهناك أيضاً بنى وجمل تتشابه في معناها وتحقق بأشكال مختلفة" (20).

والملاحظ أن تحليل الخطاب يقودنا إلى إدراك التكافؤ والتقارب بين عناصر الجمل والنصوص، وبشكل متواصل في صناعة وإبداع وإنتاج النص، وترتكز على الملفوظ حتى نصل إلى نص منهجي كما أسماه (هاريس) لأنه يعتمد على طريقة منهجية ترتكز على الإشهار (21)، معتمداً على إمكانية إجادة تحقيق الثنائية التي اعتبرها (تشومسكي) أساساً في جهده اللغوي الكفائية والأداء عند منتج اللغة.

التلفظ والتناس:

التلفظ كل ما يصدر من المتكلم بقصد ونية مبيته، عبرت عنه الآية القرآنية في قول الله عز وجل: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} (22).

ارتبط مفهوم نظرية التلفظ بمفهوم التركيب اللغوي، وتحليل للخطاب فيه مرتبط بتحليل التلفظ المدرك، وهو سمة من السمات المحسوسة لأفعال الكلام، رغم ما قد يشوبه في بعض الأحيان من إحساس بقصور في احتواء موضوع التلفظ، نظراً للفشل في إنشاء تلفظ مناسب لموضوع الحديث، وربما يكون ذلك في الخطأ البنائي للجملة المنتجة، أو ما يطلق عليه بالعجز اللساني، أما المتمكن من بناءه اللساني فيشعر بارتياح أكثر في إنتاج جمل قوية يخترق بها المعنى اختراقاً؛ فيصل إلى تخوم (التلفظ) وينجح في خلق جو من الدفء اللغوي الناتج من الصحة العامة للجمل المنتجة.

أما التناس فقضية معقدة وشائكة، تحرك في أفقها كثيراً (باختين)، وحولها (باختين) إلى مفهوم جديد يدور حول التداخل بين النصوص، واعتبر أن المقولات اللسانية هي الطريق لتحقيق فكرة التناس، لإيمانه المطلق بأن "ليس من بين مقولات اللسانيات مقولة تصلح لتحديد الكل. والواقع أن المقولات اللسانية لا يمكن تطبيقها في حالتها هذه إلا داخل (التلفظ) (23)، وأصبح من المعتبر عملياً أن "كل ظاهرة أسلوبية تنبثق من نص ما هي قضية وجود، وحضور في كل أسلوب جديد" (24).

ويراعى عند دراسة الخطاب ما قبل إفراز النص أي الصورة الذهنية المخزونة في الذاكرة، التي شكلتها اللغة عن طريق الخطاب، أو هو النص الفاعل نفسه، وتحليل الخطاب في كيفية تكوين النص في ذهن صاحب النص. ويعرف الخطاب المروي بأنه "خطاب في الخطاب، وكلفظ في التلفظ، لكنه في الوقت ذاته خطاب عن الخطاب وتلفظ عن التلفظ" (25). "ويعرف بأنه الوحدة القاعدية الحقيقية للسان - الكلام ليست هي التلفظ - الحوار الداخلي الوحيد والمعزول، كما هو معروف، ولكنها تفاعل تلفظين على الأقل أي الحوار" (26). فكل لفظ يحتوي داخل بنياته من خلال المرسل والمستقبل يجد رغبة الأول في التأثير على المتأثر.

السيمائية العربية

وجود المنهج: لم يكن لهذا المصطلح وجود إلا من خلال الدراسات التي تنادي به في وطننا العربي عن طريق

الترجمات اللغوية التي انتقلت إلينا عن طريق المفكرين العرب، والمد الثقافي الأوربي الممتد وكل من تتلمذ على المدارس السيميولوجية في أوربا.

ظهر المصطلح بوضوح وبشكل قوي ملحوظ على يد لغويي المغرب العربي، ثم بدأ المد الفكر العربي يبشر به، رغم أن بدايته كانت تدور حول اعتماده منهجاً نقدياً في حقل دراسة الأدب، والنقد الأدبي.

ودار حول ترجمة هذا المصطلح إلى العربية اختلاف كبير، فمنهم من يستعمله بمصطلح "السيميائيات"، ومنهم من يترجمه "بالسيميولوجيا". ومنهم من يترجمه ترجمة حرفية؛ أي بلفظ "سيميوطيقا". ويستعمل بعضهم مصطلح "الرموزية". ويقترح آخرون - وهم قلة - مصطلح "الأعراضية" مقابلاً للمصطلح الأجنبي، وقد تطرق المسدي إلى المصطلحات الموضوعية لمفهوم السيميائيات في النقد العربي الحديث، ودرّسها مبيناً الكيفية المتبعة في توليدها.⁽²⁷⁾

أولى العديد من الأدباء والكتاب واللغويين عنايتهم بهذا المصطلح، وحملوا على عاتقهم مسئولية التعريف به والتنظير له، من خلال ترجمة العديد من المؤلفات الغربية ومن خلال كتابات الأدباء والكتاب ونظرات الأكاديميين، نحو: (حنون مبارك- صلاح فضل- جميل حمداوي- فريال جبوري غزول...)، أو عن طريق الترجمة لـ (محمد البكري- سعيد بنكراد...)، وإنجاز أعمال تطبيقية ككتب (محمد مفتاح - سعيد بنكراد- سامي سويدان)، وظهرت المقالات الأدبية المتنوعة في المجالات الأدبية واللسانية كـ (مجلة علامات بالمغرب) و(مجلة عالم الفكر الكويتية) وعلامات في النقد السعودية و(مجلة فصول المصرية). واستوى الأمر على عوده فأعجب زراع العلم ودارت حول الموضوع حلقات البحث العلمي فتخلل وجوده في الرسائل العلمية الجامعية في العديد من ربوع الوطن العربي، خاصة في جامعات المغرب العربي.⁽²⁸⁾

صلاحية المنهج لدراسة اللغة العربية:

كانت بداية ظهور المنهج على يد رجال الأدب، وحاول علماء العربية وضع أسس ومبادئ تهيء اعتماد فكرته منهجاً لدراسة اللغة العربية، ولكنها لم تلق رواجاً كافياً للأسباب الآتية:

- عدم اقتناع معظم رجال اللغة به، نظراً لغموض مصطلحاته عند رجال الأدب أثناء تناولهم له.
- وجود المنهج اللغوي البديل لدراسة موضوعاته في اعتماد الدراسة الدلالية بعمومها كمنهج كامل يغني الباحث عن الخوض في طرق غير واضحة المعالم.

الأبعاد الدلالية :

اللغة نظام يتألف من بنىء شكلي، وصورة متوفرة ومخزونة في ذهن المتكلم والسماع، وعليه " فدراسة اللغة أو تحليلها ينبغي أن تبدأ من النية الداخلية".⁽²⁹⁾ وتتضح الأبعاد الدلالية بوضوح عن المساهمة في توضيح مفهوم البعد النفعي في التجربة الإنسانية، خاصة عند تحقيق الربط والانسجام بين السياقات المختلفة، فندرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، مع توفر العلامات والإشارات المستخدمة للرمز، بدلالاته الإيحائية، وعندئذ لا تصل للإقناع إلا بعرض جميع المعاني الأولية والثانوية، القريبة أو البعيدة. إن المعنى موجود في الاستعمال لا في الوحدات اللسانية المعزولة، المخزون من الكلمات والقواعد

السابقة في ذهن المتكلم، فالكلمات تقوم داخل الخطاب بنسج سلسلة من العلاقات المنبثقة عن الطابع الخطي للسان الذي يستبعد إمكانية النطق بعنصرين في آن واحد، والترابط بين الوحدات المستمدة من العلاقات التركيبية، والتوافق بين الشكل والمضمون التناظرية، وكذلك العلاقة التوليدية، والتأويلية، وبعض الدلالات والإيماءات وشرح معاني الصورة واللوحة، والدلالات الخفية والصريحة، وبعض الظواهر غير اللسانية المنبثقة من عدة عناصر، وهي: (الشكل – اللون – المكان – الزمان – الملبس والمأكل والمشرب). فطبيعة الأمر أن اللسانيات المعاصرة حددت جغرافية الخطاب عند حدود الجملة، فحظيت الاهتمام والدرس بوصفها وحدة تتوافر على شرط النظام. وهي غير قابلة للتجزئة، وإذا أمعنا النظر في ماهية الخطاب على أنه ملفوظ يشكل وحدة جوهرية خاضعة للتأمل.

يبدو في حقيقة الأمر أن الخطاب نابع من تسلسل الجمل المتتابعة التي تصوغ ماهيته في النهاية. ومن الدارسين الذين يعتبرون السيميائيات منهجا نجد الدكتور عبد الرحمن بوعلي الذي يقول في تقديمه لأحد كتب (دولودال) التي ترجمها إلى العربية: "تحتل السيميوطيقا – أو السيميولوجيا- مكانة هامة ضمن المناهج النقدية. ولئن كان البعض يعتبرها مجرد موضة من الموضات، فإن هذا الوصف لم ينقص من قيمتها كمنهج علمي وإجرائي في الدراسات الأدبية وتحليل النصوص الأدبية بالدرجة الأولى، بل ولم يزد المشتغلين بها إلا مقاومة لكل نزعة تبسيطية. ولذلك فهي في الاعتبار الصحيح منهج لا يمكن التقليل من أهميته أو التقليل مما يمكن أن يفتحه من سبل وآفاق جديدة تنير مجاهل التعبير الأدبي والفني"⁽³⁰⁾ إشكالية غموض المصطلح:

أدي تشعب واختلاف دلالة مصطلحات المنهج السيميائي إلى التدخل والتشعب الاضطراب الفكري في توضيح ماهية تلك المصطلحات.

ويؤكد (جون كلود كوكيه) أحد أقطاب مدرسة باريس السيميائية قائلا: "إن القارئ العادي، وكذلك الباحث في مجال العلوم الاجتماعية من حقهما أن يتساءلا عن موضوع هذا العلم، إلا أنهما مع ذلك يجب أن يعلما- على الأقل- أن التعريفات والتحديدات، تختلف ولاسيما إذا تعلق الأمر بموضوع علمي لم يمر على ميلاده وقت طويل."⁽³¹⁾

يرى أرسطو: أن الحوار الإنساني يشترط وجود العناصر التالية: "الكلام" و"الأشياء" و"الأفكار". فالأشياء (العالم الخارجي) هي ما تراه حواسنا وما تدركه عقولنا، أما الأفكار (المفاهيم) فهي أدواتنا لمعرفة الأشياء، وأما الكلام (العلامات اللفظية) فهو الأصوات المتمفصلة في وحدات، وهي ما يخبر عن الأفكار، فبدون علامات لا يمكن تصور أي شيء. "إن للإنسان قدرة عقلية تعد نموذجاً فريداً لا يمكن أن يعزى إلى أشياء خارجة عنه، وأن هذه المقدرة تتمثل في هذا الجانب الخلاق أو الإبداعي من العقل البشري والتي تعد اللغة الإنسانية من أبرز مظاهره"⁽³²⁾

لكل لغة سيميائيتها الخاصة التي تتكفل بصياغة قواعد بنائها الداخلي. فهذه اللغات تحتكم إلى "نحو" يحدد لها نمط وجودها ونمط اشتغالها. والمقصود بالنحو في جميع هذه الحالات هو مجموعة من

القواعد الخاصة باشتغال كل نسق على حده، وهي قواعد تتضمن في آن واحد ما يعود إلى التركيب وما يعود إلى الدلالة، أي ما يعود إلى طريقة البناء وما يعود إلى المضمون الدلالي. فلا يمكن للصورة مثلاً أن تنتج دلالاتها بنفس الطريقة التي ينتج بها السرد مثلاً دلالاته.

أسبقية المنهج في دراسة اللغة:

لا يجب أن ينظر لهذا العلم بأنه سبق في حد ذاته، ففكرته الغربية باتت قديمة رغم قول بعض الباحثين "لقد رأت السيميولوجيا النور على يد دي (سوسير) الذي اعتبرها علماً أرحب دلالةً من علم الألسنية..."⁽³³⁾

والحقيقة التي لا نعيد عنها أن إسهام العرب الأوّل في هذا المجال واضح من خلال الكتب التراثية، عندما حاول بعضهم تناول قضية الدلالة باعتبارها النسبة الرابطة بين اللفظ والمعنى، أو بين الدال والمدلول، فالعلاقة الواقعة بين الدال والمدلول علاقة ذاتية، ينظر إليها على أنها دلالة وضعية، أو دلالة اصطلاحية قائمة على المواضعة والاتفاق.⁽³⁴⁾ في شكل أنساق مترابطة، كل نسق فيها يمثل وظيفة نحوية، تحدها العلامة الإعرابية، مع وضع في الاعتبار أن أصل هذه التراكيب اللغوية أصوات مفككة، تلتحم مع بعضها البعض وبكل صور التوافق والانسجام الصوتي دون تنافر بينها مكونة كلمات على شكل أبنية الكلمة، تلك الكلمات التي تمثل اللبنيات الأولية للبناء الكامل المتكامل من جمل وفقرات... إلخ.

تعرض الدكتور عبد العزيز حمودة في كتابه⁽³⁵⁾: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، حيث تحدث عن مفهوم العلامة، وحدد ماهيتها، ووظيفتها "وما توصله العلامة هو الدلالة، وعملية التوصيل ذاتها من طرف إلى طرف آخر، هي التدليل" ثم قدم توضيحاً لأشكال العلامة التي يمكن أن تأخذ أشكالاً متنوعة: المفردة اللغوية، أو الكلمة، فقال "تحدث سوسير عن الكلمة أو المفردة اللغوية مقروءة أو مكتوبة باعتبارها علامة"⁽³⁶⁾.

وعبر عن هذا كله بقوله: قد توجد العلامة على شكل وحدة لغوية منفردة هي الكلمة، وقد توجد داخل نسق كلى مصغر هو الجملة، وقد توجد على شكل نص أو نسق أكبر ينظم عدداً من الوحدات الصغرى داخل عدد من الأنساق الصغرى وهو النص"⁽³⁷⁾.

ثم يعرض لنا تعريف العلامة عند أرسطو، فيقول: إن الأصوات التي يخرجها الإنسان رموز لحالة نفسية والألفاظ المكتوبة هي رموز للألفاظ التي ينتجها الصوت.⁽³⁸⁾

ثم يقدم لنا تعريف بيرس فيقول: يرى العلامة باعتبارها شيئاً يمثل بالنسبة لشخص ما شيئاً في جوانبه أو صفاته.⁽³⁹⁾ و "أن اللغة كنسق أو أنساق علامات كانت دائماً موضع اهتمام الدراسات الأدبية والنقدية بدرجات متفاوتة"⁽⁴⁰⁾، وخلص إلى قوله "ومن هنا أصبح علم اللغة يدرس العلامات في اللغة وليس في الكلام".⁽⁴¹⁾ و "أن اللغة عبارة عن تراكيب أو أنساق من مفردات لغوية ترمز لعمليات ذهنية".⁽⁴²⁾

ونبه على نقطة مهمة جداً وهي، أنه لم يتوقف الأمر عند دراسة اللغة النثرية، بل انتقل إلى اللغة الشعرية، فيقول: والعناية البالغة بالجانب اللغوي والموسيقي في القصيدة وتوظيف الإيقاع والوحدات

الصوتية والتركيبية، بما يثري الشكل الشعري قبل كل اعتبار.⁽⁴³⁾ وتدور محاور العلامة الأساسية⁽⁴⁴⁾ عنده حول:

- العلامة أيّاً كان نوعها أو حجمها. - الرسالة (الدلالة - المعنى المراد). - السياق الذي يحمل طبيعة الموقف اللغوي.

سيمائية المنهج العربي بين النظرية والتطبيق

تعددت المناهج الحديثة فتعددت العلوم، وانتقلت من الفروض إلى التنظير إلى التطبيق؛ ولكن أي المناهج ترقى وتنتقل من حيز التفكير إلى حيز التنظير، إلى حيز التطبيق.

والمنهج السيميائي بكل ما تم الخوض فيه في هذه النظرة السريعة، لم يجد الطريق الممهد السليم للتطبيق، بكل مرونة، ومازال أمامه الكثير ليصل إلى هذه الدرجة، فما زالت في طيات الآمال، رغم ما يعج به النص كونه خزاناً من الاحتمالات الدلالية المتوقعة عند تفسير الحدث الكلامي.

النص هو وحدة متكاملة لا وجود للجزئيات فيه إلا بمقدار صلتها بالكل، والجملة في النص لا تحلل أو تفهم في ذاتها، وإنما من خلال النص بأكمله.⁽⁴⁵⁾ ويتجلى ذلك بوضوح في دراسة الأسس اللسانية وموقعها في قراءة الصورة الفنية. أما ما يخص فلسفة اللغة حيث الإنسان هو الكائن الوحيد المنتج للدلالات، بدءاً من الأصوات إلى أشكال حاملة للمعاني، فالكشف عن القواعد التي تحكم طريقتها في إنتاج معانيها، فإن السيميائيات وسعت من دائرة اهتماماتها لتجعل من كل الأنساق التواصلية التي يستعين بها الإنسان في خلق حوار مع الآخر موضوعاً لدراستها.

لقد صار التحليل السيميائي تصوراً نظرياً ومنهجاً تطبيقياً في شتى المعارف والدراسات الإنسانية والفكرية والعلمية وأداة في مقارنة الأنساق اللغوية وغير اللغوية. وأصبح هذا التحليل مفتاحاً لا بد من الالتجاء إليه.

ويكمن وجود السيميائية كمنهج للتفكيك، والتركيب، في الشعر بأنواعه المتعددة في اللغة، والنثر الرواية والقصة، الأسطورة والخرافة، المسرح.... حتى دراسة الفلكلور الشعبي.

وليس عيباً النظر في إمكانية الاستفادة منه في إثراء الفكر اللغوي عند دراسة دلالات الإشارة في النص. إسهامات اللغويين العرب وأدوات منهجهم في دراسة اللغة، وفق هذا العلم:

كان اللغويون العرب سابقين إلى رسم استراتيجية دراسة اللغة العربية، فتأسست على أيديهم علوم كثيرة كعلم أصول النحو، وأصول الفقه، ونعرض قضية واحدة تحدث عنها اللغويون القدامى على اختلاف مشاربهم وعصورهم ونرى ما فيها من توافق كنقطة تلاق بينهم وبين ما حدث به بعض لغويي العصر الحديث. أبدع علماء العربية في رسم منهجية قائمة على الإرادة الواعية واتسمت بالتنظيم الداخلي ووضوح المفاهيم المطروحة للنقاش كمفهوم للجملة الذي يقترب كثيراً من تداول الفكر من قديم وحديث لأطروحات علماء اللغة العربية عندما يعرفون الكلام على أنه كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه. وهو الذي يسميه النحويون الجمل، "نحو: زيد أخوك، وقام محمد، وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه ومه ورويدا... فكل

لفظ استقل بنفسه وجنبت منه ثمرة معناه فهو كلام⁽⁴⁶⁾. وإذا كانت عناصر مثل الكلمة والصوت والنغم تشكل إطار الجملة، وتعمل على بناء المعنى، فهذا لا يعوق دراسة الخطاب من وجهة نظر لسانية. فالجملة بالنسبة إليه وحدة لسانية لا تؤلف صنفا شكليا من الوحدات المتعارضة بينها، مثل تعارض القونيمات الفونيمات أو الفونيمات مع المورفيمات، أو المفردات مع المفردات.

ومن الدراسات العربية المتعددة والمتنوعة التي تنتشر في طيات كتب العربية القديمة يتضح لنا أصول وجذور هذا العلم عند العرب القدامى، فما تحدث عنه أبو عبيدة في إعجاز القرآن، وما تحدث عنه الجاحظ في صناعة الكلام، فقد قال أبو حيان في كتابه تفريط الجاحظ: اتفق أهل صناعة الكلام بأن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة وأبو البلخي، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه وهو علي بن عبيدة، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد.⁽⁴⁷⁾ وكذلك ما بينه ثعلب في بيان قواعد الشعر، وكذا أبو سعيد الأصفهاني في كتابه تهذيب الفصاحة، وكتاب الصناعتين لأبي هلال.

من أهم القضايا التي عرض لها علماء العرب القدامى، وتدخل في إطار اهتمام الفكر السيميائي، ويحمل مدلول (فقه اللغة) وغالباً ما يدور حول فلسفة اللغة، وتقوم على اتساع أو الدعوة إلى اتساع مساحة التخيل في تفسير المعنى، وبالتالي يناقش بعضاً من قضايا اللغة منها:

- "أصل اللغة" وضع اللغة وطبيعتها وعلاقتها بعالم الأشياء.

- اللغة باعتبارها نشاطاً إنسانياً عاماً تتجاوز في كيانها حدود اللسان الذي لا يشغل داخلها سوى وسيلة ضمن وسائل أخرى لا تقل أهمية عنه كالإشارات، والطقوس، والرموز، والأمارات ...، فلن يكون مفيداً، التواصل على اللسان وحده، فعلماء اللغة يحددون الكلمة بأنها "وحدة في جملة تحدد معالم كل منها بإمكانية الوقوف عندها" والجملة هي. "تتابع من الكلمات والمركبات التنغيمية"⁽⁴⁸⁾

أولى اللغويين العرب للكلام أهمية كبرى، وربطوه بماهية الجملة، وقسموا عناصرها إلى اسمية وفعلية من حيث موقع المسند والمسند إليه⁽⁴⁹⁾، وما أنجز عنها من علاقات حددها تمام حسان في العلاقات السياقية (القرائن المعنوية، وحصرها في الإسناد)، والتخصيص، والنسبة والتبعية، والمخالفة⁽⁵⁰⁾. الفروق القائمة بين اللغة والكلام، كما هو الشأن لدى (سوسير) أن "الكلام هو القول المفيد بالقصد والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه. فذلك يعني تجاهل وإهمال أنساق أخرى لها دور رئيس في إنتاج المضامين الدلالية وإبلاغها؛ حيث قرر إن المعنى موجود في الاستعمال لا في الوحدات اللسانية المعزولة.

وكذلك البحث الدلالي وأنواع الدلالات عند "ابن جني"، من خلال كتاب الخصائص والتنويه إلى قضية اللفظ والمعنى، فاللغة هي التي تمدنا بكل ما نعرفه عن العالم الخارجي. واللغة والإنسان والطبيعة والثقافة والعلوم، واللغة و العلامات والرموز، والعلامة ووظيفتها وموقعها ومكوناتها، تماماً كما فعل من قبل مع اللسان الذي اعتبره مهدياً لهذه العلامات. ومن خلال "تداخل الكلمة والجملة في مفهوم متلاحم، وعليه فإن الجملة تتشكل من "مجموع الوحدات التي يصح أن يقف بينها (الكلمات) بالإضافة إلى درجة الصوت والتنغيم والمفصل، ونحو ذلك مما يدخل في إيضاح المعنى"⁽⁵¹⁾ أو ما يطلق عليه الفونيمات الثانوية.

الجرجاني: تحدث الجرجاني كثيراً عن مصطلح الخطاب، وعناصره من خلال حديثه عن مسألة الفصل والوصل عن التصور النحوي للمكونات في نطاق الجملة، فإنه جعل للمعنى سلطاناً يتحكم في تناسق عناصر الخطاب وانسجامه متوسلاً في ذلك بمصطلح " معنى الجمع".⁽⁵²⁾

" النظم قلما يخطيء العربي الأصل في مراعاة طريقه؛ لكن المحدثين والمولدين زحف عليهم الخطأ من كل مكان، وخاصة لشدة اختلاط الألسنة، وامتزاج الأجناس.⁽⁵³⁾ وإن النحو غايته تصحيح المعاني وإذا أرادوا صحة التراكيب فلدلالتهم على المعنى الذي أراداه الشاعر أو الذي تتطلبه عبارة الناثر، أما النظم عند عبد القاهر ليس شيئاً آخر سوى تعليق الكلام، بعضه ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض.⁽⁵⁴⁾ وعرض عبد القاهر فكرة النظم في نظريته عن الصياغة، بقوله: ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة. وعرض لفصاحة الكلام، وخلوها من الغرابة والتنافر بين الحروف ومطابقة الكلام للسامعين.⁽⁵⁵⁾

وليس من شك في أن الأسلوبية المعاصرة لا تكاد تختلف في كثير من نظرية النظم العربية التي وضع أصولها الإمام عبد القاهر الجرجاني.⁽⁵⁶⁾ والصياغة عند عبد القاهر تتفاوت على درجات وهي أمانة على البراعة والحدق، ولها لطائف لا تحصى.⁽⁵⁷⁾

ومن الأمور التي تحدث عنها الجرجاني شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه، والالتحام بين أجزاء النظم، والتأמה على تخيير من لذيذ الوزن، وكذلك مناسبة المستعار منه للمستعار له، ومع معالجة مشاكل اللفظ وشدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما. حيث " الأسلوب إذن هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام.⁽⁵⁸⁾

ابن جني: يقدم لنا ابن جني مقتطفات من الجهد اللغوي الراقى الرائع من خلال كتابه الخصائص الذي جمع فيه فقه اللغة العربية، إن لم يكن اللغة العالمية، فلخص رأيه ورأي أكثر أهل النظر في حقيقة نشوء اللغة بـ "أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح"⁽⁵⁹⁾، وقدم لنا مقولة لغوية دقيقة كان له السبق فيما بقوله: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁽⁶⁰⁾ و" اعتبار اللغة جوهرًا مادياً خاضعاً لقوانين العالم الطبيعي الثابتة، إذ أنها خلق إنساني، ونتاج للروح البشري تتميز بدورها كأداة للتواصل ونظام من الرموز المخصصة لنقل الفكر فهي مادة صوتية، ذات أصل نفسي اجتماعي.⁽⁶¹⁾

ومما قدمه ابن جني من روائع البحث الدلالي في حديثه عن أنواع الدلالات، وانشغاله بطرح قضية اللفظ والمعنى، فإذا كانت الجملة هي الكلام عند ابن جني، فهي تقابل القول عند سيبويه، وحديثه عن التذكير والتأنيث وإفراد الجماعة وجمع المفرد.⁽⁶²⁾

ابن الأثير: تناول ابن الأثير القضية ذاتها في طيات حديثه بقوله: " وحقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة لأنه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كانتقال من خطاب حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك.⁽⁶³⁾

الزمخشري: أما جار الله الزمخشري فعرف الكلام بأنه "المركب من كلمتين أسندت أحدهما إلى الأخرى... وذلك لا يتأتى إلا في اسمين كقولك زيد أخوك، وبشر صاحبك، أو في فعل واسم نحو قولك ضرب زيد وانطلق بكر ويسمى جملة" (64). إن تصور اللغويين العرب للجملة وصلتها بالكلام لا يخلو من غموض وتناقض في بعض الأحيان .

الجاحظ: يعد الجاحظ مدرسة لغوية متكاملة، تكلم عن العديد من القضايا اللغوية، فنجدده يقسم أنواع الكلام، ويحسب المقامات. (65)

ولم يقتصر اهتمام الجاحظ بهذا فقط، بل انتقل لدراسة أصوات اللغة بدقة متناهية، فقال " وأن حروف اللغة الواحدة في اجتماعها بالكلمات والجهل يتنافر بعضها الآخر وقد لاحظ الجاحظ أن الجيم لا تقارن الطاء ولا الطاء ولا الغين بتقديم أو تأخير وأن الزاي لا تقارن الطاء ولا السين ولا الضاد ولا الغين بتقديم أو تأخير، وأن الزاي لا تقارن الطاء، ولا السين ولا الضاد الذال بتقديم ولا تأخير". (66)

عبر أيضا عن التأثير والتأثر بين الأمم، وبالتالي اقتضى الكلام عن الدخيل وأكد أنه " باحتكاك العرب بأبناء الشعوب الأعجمية أسهم في إدخال الدخيل على العربية من ألفاظ جديدة، وصيغ حديثة وأشاعوا فيها اللحن واللكنة. (64) و" إن العرب في الجزيرة العربية كانت لهم لغة واحدة وأخلاق واحدة بسبب وحدة التربة والهواء والماء". (67)

مما يلفت النظر حديثه المطول عن اللغة الخاصة، وما ينبغي من اللغة للملوك والسوقة عبر عنه بقوله: " لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقاتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم". (68)

الرضي: يفرق الرضي بين الكلام والجملة، وأن الجملة ما تضمن الإسناد الأصلي، سواء كانت مقصودة لذاتها أولا كالجملة التي هي خبر المبتدأ وسائر ما ذكر من الجمل.. والكلام ما تضمن الإسناد الأصلي وكان مقصودا لذاته، فكل كلام جملة ولا ينعكس" (69).

الموشح الأندلسي وصورة من صور السيميائية:

الذي يقرأ الموشح ويقارنه بالشعر العربي الأول يجده يختلف عنه في موضوعه وبناءه، بعض الشيء، يلحظ توفر البيئة الأندلسية المختلفة عن البيئة العربية الأولى القحلة، وبالتالي تظهر الرموز والعلامات والإشارات نظراً للرفاهية وبساطة العيش، والترف الفكري والفراغ الذهني، والطبيعة الخلابة.

نعرف من خلال كلام صلاح فضل في حديثه عن الموشح الأندلسي بين الانحراف والتناس، وعند التأمل بعين الفاحص للموشحات الأندلسية، وما أدخلته من حادثة على القصيدة المشرقية، ومدي انحرافها الحاد عن نموذج القصيدة الشرقية، وخروجها عن إطاره وهو انحراف أندلسي، في صميمه أدت إليه ضرورات الزمان والمكان، وتجلت في ثلاثة مستويات متراكبة، موسيقية، لغوية، وأخلاقية. (70)

ثم إن دلالة بل دلالات بلاغية اصطلاحية معروفة تستوحى من فن الموشح لخير دليل على مراعاة الأسلوب، بما يتمتع به من غزارة في العلامات والإشارات بدلالاتها المتنوعة، " إن التوشيح أن يكون مبدأ الكلام

ينبأ عن مقطعه وأوله، يخبر بآخره، وصدره يشد بعجزه".⁽⁷¹⁾

وهذا أيضاً يظهر في شعر العرب فيما بعد الاندماج العربي الفارسي أبان العصر العباسي، فلما " جاء العصر العباسي وانتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد، فجاور العرب الفرس، وأخذوا بحضارتهم، الناعمة المرفهة فجدت في الشعر فنوناً لم يألّفها الجاهليون إلا بمقدار كأشعار المجون والخمر أو لم يألّفوها أصلاً كالغزل بالمذكر.⁽⁷²⁾

ولا يمكن في جميع الظروف عدم مراعاة المفهوم الثقافي للكلمة؛ لأنه يمثل جانباً من الأهمية في فهم اللغة بعمومها. وبالتالي تنشط الذاكرة اللسانية عند الإنسان، وعند استحضار اللغة، ويكشف عن المخزون الدلالي، مع مناقشة التنوع اللغوي حسب الاختلاف في الزمان وفي المكان، رغبة في الدلالات المتنوعة الموجودة أو عن طريق التوليد الدلالي "أو" إنتاج الدلالات وتداولها". مع البحث عن الدلالات الجدلية في تفسير المفردات، ومناقشة تنوع السياقات، وتعدد المضامين، مع رصد المعنى وتحديد بؤره ومظانه داخل النص، وتناوله للعديد من الانزلاقات الدلالية، من خلال السياق الذي يعد أساساً من أسس حديد مفهوم الدلالة، ودراسة اللهجات العربية، وفق محاور متعددة كالتالي: * علم التاريخ والأنساب. * علم الجغرافيا. * علم والأنثروبولوجي. * علم السياسة.

نقد السيميائية:

لم تسلم السيميائيات من عيوبٍ ومآخذ، وأبرز الانتقادات الموجهة إلى التحليل السيميائي، التي يمكن إجمالها فيما يأتي:⁽⁷³⁾

- ينظر للسيميائية على أنها مازالت مجموعة من الاقتراحات أكثر منها كيانا معرفيا قائما على أساس متين". ولم تصل لدرجة الأنموذج من تطورها كعلم".⁽⁷⁴⁾
- يؤخذ على التحليل السيميائي أنه يعاني من الاضطراب المكون من خليط من علوم اللغة والنحو والبلاغة.
- يغرق في التجريد والمنطقة، ولا ينزل لأرض الواقع خاصة السيميائية اللسانية.
- وقع المنهج السيميائي في أزمة حقيقية وهي باختصار أنه لا يوازن في قوته في معالجة الظواهر المركبة أو المعقدة، بل يميل للظواهر الثانوية البسيطة. من خلال اهتمامه بدراسة العلامات البسيطة.
- يشعر أصحاب المنهج السيميائي أن أتباع هذا المنهج في مأزق عند التعامل مع النصوص الحساسة التي تعد الحديث عنها اختراق المسكوت عنه، واعتبار الخوض فيه جرأة علمية.
- اعتماد المنهج السيميائي ووقوفه عند حدود الملاحظة والوصف ولا يتعدى ذلك إلى التقويم والتوجيه.

الهوامش والحواشي:

- (1) ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد مصلوح، ووفاء كامل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 193.
- (2) انظر: تزيفتان تودوروف، الأدب والدلالة، ترجمة محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، 1996م، ص 117.
- (3) الأحمر، فيصل: معجم السيميائيات. منشورات الاختلاف. الطبعة الأولى. 1431هـ/2010م. ص 11-12 بتصرف. محاولة في أصل اللغات، جان جاك .رسو، ترجمة: محمد محجوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط9.
- (4) الحناش، محمد: البنيوية في اللسانيات، الحلقة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1980م، ص 6.
- انظر: التحليل البنيوي للسرد رولان بارت، ت: مجموعة من المؤلفين، مجلة آفاق المغربية، ع: 8، 9، 1988 _ ص 9.
- (5) سعيد، خالدة: حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، ط 2، 1979 ص 13- 14. وانظر: ريكور، بول، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2003، بيروت، الدار البيضاء، ص 48 .
- (6) سعيد، خالدة: حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، ط 2، 1979 ص 13- 14.
- (7) ميلكا إفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة سعد مصلوح، ووفاء كامل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص 193، انظر: دروس في الألسنية العامة دي (سوسير): ترجمة: مجموعة من المؤلفين التونسيين. ص: 29.
- (8) جان جاك رسو: محاولة في أصل اللغات، ترجمة: محمد محجوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط9.
- (9) -Emile Benveniste, Problemes De Linguistique Generale, Ed, Gallimard, Paris, 1974 Till, pp 224-225.
- (10) الخبو، محمد: الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، من 1976- 1986م، جامعة صفاقس، دار صامد، تونس 2003م. ص 16.
- (11) ينظر: حسان، تمام، اللغة العربية، معناها ومبناها، دار الثقافة، ط.ن.لا، الدار البيضاء، المغرب، ص 47.
- (12) دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: مجموعة من المؤلفين التونسيين. (ص 29).
- (13) ينظر: الطعاني، يوسف: اللغة كأيدولوجية مجلة الفكر العربي المعاصر لبنان _ ص: 75.
- (14) طحان ريمون ودنيز بيطار طحان: فنون التعقيد وعلوم الألسنة، لبنان- ص 292.
- (15) – see: zellig s. Harris, Analyse du discours, in Langage, N13 mars, 1969, pp.8-9.
- (16) انظر: تزيفتان تودوروف: الأدب والدلالة، ترجمة: محمد نديم خشفة، حلب: مركز الإنماء الحضاري، 1996، ص 57.
- (17) الماركسية وفلسفة اللغة ميخائيل باختين: تر: محمد البكري ريمني العيد ص 150.
- (18) الغدامي، عبد الله: الخطيئة والتكفير، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة السعودية، 1985م. ط1، ص 321.
- (19) ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة ص 155.
- (20) ريمون طحان ودنيز بيطار طحان: فنون التعقيد وعلوم الألسنة – لبنان- ص 292.
- (21) المسدي، عبد السلام: المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع (تونس)، ط 1 (1994).
- (22) سورة: ق، الآية 18.
- (23) ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة- ترجمة: محمد البكري ريمني العيد- ص 150. انظر: خليل، حلي: دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، 2000م، ص 36، ص 45.

(24) جيرار دولودال، السيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة: د. عبد الرحمن بوعلي، مطبعة النجاح الجديدة (البيضاء)، ط 1 (2000)، ص 21.

(25) خليل، حلي: دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، 2000م ص 45

انظر: Chomsky, n , Langage and mind, new york, 1972. pp 33

(26) ميخائيل باختين: الماركسية وفلسفة اللغة- ترجمة: محمد البكري ريمني العيد- ص 150. وانظر: محاضرات في السيميولوجيا، محمد السرغيني دار الثقافة، المغرب، ط 1 1987، ص 68.

(27) المسدي، عبد السلام: المصطلح النقدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع (تونس)، ط 1، 1994، 1. التهانوي محمد علي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، (ق 12 هـ) تح: د. علي دحروج، تر: عبد الله الخالدي، تق: رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون (بيروت)، ط 1 (1986)، 788/1.

(28) انظر: جبران، عبد الرحيم: مفهوم السيميائيات، الحوار الأكاديمي والجامعي، العدد 1، السنة 1 يناير 1988، ص: 7؛ المرتجي، أنور: سيميائية النص الأدبي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 1987، ص: 3؛ حنون، مبارك: (السيميائيات بين التوحيد والتعدد)، الحوار الأكاديمي والجامعي، العدد 2، فبراير 1988، السنة 1، ص: 8؛ بيير غيرو: السيمياء، ترجمة: أنطون أبي زيد، ط 1، 1984، منشورات عويدات بيروت، لبنان، ص: 5؛ ترنس هوكز: البنيوية وعلم الإشارة، ترجمة مجيد الماشطة، ط 1، 1996، بغداد، العراق، ص: 114؛ رولان بارت: مبادئ في علم الأدلة، ترجمة محمد البكري، دار قرطبة للنشر بالدار البيضاء، ط 1، 1986؛ مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد لحميداني وآخرين، ط 1، 1987، دار أفريقيا الشرق، البيضاء، د. محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1987م؛ د. عبد الرحمن بوعلي: محاضرات في السيميولوجيا، ألفت على طلبية الإجازة بكلية الآداب بوجدة سنة 2005-2006.

(29) حمودة، عبد العزيز: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة علم المعرفة، رقم 232، سنة 1998م، ص 270.

(30) السابق، ص 265.

(31) السابق، ص 265.

(32) السابق، ص 266.

(33) السابق، ص 267.

(34) السابق، ص 269.

(35) حمودة، عبد العزيز: المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة علم المعرفة، رقم 232، سنة 1998م.

(36) السابق، ص 270.

(37) السابق، ص 270-274.

(38) خليل، حلي: دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص 36 ص 45.

(39) ابن جني، أبو الفتح: الخصائص: 18/1

(40) الحموي، ياقوت: معجم الأدباء 95/16.

(41) ماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، ص 112

- (42) مغني اللبيب ابن هشام: ص 490.
- (43) ينظر: حسان تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 189، 204.
- (44) ماريو باي: أسس علم اللغة ترجمة: أحمد مختار عمر _ ص 113.
- (45) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984، ص 222.
- (46) خفاجي، محمد عبد المنعم- فرهود، محمد السعدي- شرف، عبد العزيز: الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط 2، 1999 م.
- (47) مقدمة دلائل الإعجاز ص 3/28.
- (48) ماريو باي: أسس علم اللغة _ ترجمة: أحمد مختار عمر _ ص 112، الصاوي، النقد التحليلي عند عبد القادر، 1979 الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 318-319.
- (49) خفاجي، محمد عبد المنعم- فرهود، محمد السعدي- شرف، عبد العزيز: الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط 2، 1999 م.
- (50) حسان، تمام، اللغة العربية، معناها ومبناها، دار الثقافة، ط.ن. لا، الدار البيضاء، المغرب، ص 189-204. وانظر: نظريات العلاقات بين عبد القاهر والنقد العربي الحديث، أحد نايل، دار الطباعة. د.ت. ص 37.
- (51) ماريو باي: أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، ص 113.
- (52) ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد على النجار، القاهرة، 1956 م: ج 1 ص 40.
- (53) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984، ج 2: 43.
- (54) السابق ج 2/43.
- (55) السابق ج 2/43.
- (56) ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه وعلق عليه أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، نهضة مصر، القاهرة د.ت. 168/2.
- (57) الزمخشري: المفصل _ ص 6.
- (58) الزيات، أحمد حسن: دفاع عند البلاغة، مطبعة الرسالة 1945، ص 56. وانظر: الجاحظ، أبو عمرو: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ط 5، 1985 م، 138-139.
- (59) انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح شليبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1386 م، 145/1.
- (60) ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد على النجار، القاهرة، 1956 م: ج 1 ص 40.
- (61) انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي، عبد الحليم النجار، عبد الفتاح شليبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1386 م، 145/1.
- (62) ملحم، علي: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 1988 م. ص 363.
- (63) الزمخشري: المفصل، ص 6.

- (64) الزمخشري: المفصل _ ص 6.
- (65) ملحم، علي: المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م. ص 363.
- (66) الجاحظ، أبو عمرو: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة 1961م. 1/17.
- (67) البيان والتبيين 204/1
- (68) البيان والتبيين 93-92/1
- (69) الرضي: شرح الرضي على الكافية _ ص 52.
- (70) فضل، صلاح: علم الأسلوب، ص 10،
- شفرات النص، القاهرة 1990 م، ص 33.
- (71) العسكري، أبو هلال: الصنائع، القاهرة 1952. 1/382.
- (72) مندور، محمد: النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر، 1996م. ص 75
- (73) انظر: مارسيلو داسكال الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة حميد الحمداني، العمري، محمد- طنكول، عبد الرحمن – الولي، محمد- حنون، مبارك دار افريقيا الشرق، الطبعة الأولى 1987. ص 17 - 18.
- (74) فاخوري، عادل: حول إشكالية السيميولوجيا (السيمياء)، مجلة عالم الفكر، الكويت، 1996 م، ص 182.